حياة أعظم الرسل

مُحَمّد تُرضِعُه حَلِيمَة

مُحَمَّدٌ تُرْضِعُهُ حَلِيمَه

وَدَّعَتْ حَلِيمَةُ السَّيِّدَةَ آمِنَةَ ، أُمَّ النَّبِيِّ ، وَوَدَّعَتْ جَدَّهُ ، وَأَخَذَتْ مُحَمَّدًا بَيَن يَدَيهَا . وَرَكِبَتْ حِمَارَتَهَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا الطِّفْلُ الصَّغِيرُ . وَأَرادَتْ حَلِيمَةُ أَن تَلْحَقَ النِّسَاءَ اللاَّتِى سَبَقْنَهَا ؛ لِتَكونَ مَعَهُنَّ فِى هٰذِهِ الرِّحلَةِ إِلَى بَيتِهَا . وَقَد عَجِبَتْ كَثِيرًا حِينَمَا وَجَدَتْ حِمَارَتَهَا

تَمشِى بِسُرعَةٍ ، مَعَ أَنَّهَا مَعرُوفَةٌ بِالبُطْءِ الشَّدِيدِ . فَقَالَتْ لِنَفسِهَا : هٰذِهِ بَرَكَةُ مُحمدٍ . لَحِقَتْ حَلِيمَةُ المُرضِعَاتِ اللاَّتِى سَبَقْنَهَا ، فَتَعجَّبْنَ مِنْهَا ، وَسَأَلْنَهَا : كَيْفَ لَحِقتِنَا يَا حَلِيمَةُ ؟ أَجَابَت حَلِيمَةُ : إِنَّنِى مَعَكُنَّ الْآنَ ، وَسَأَسْبِقُكُنَّ . فَقُلْنَ لَهَا : أَخبِرِينَا عَمَّا حَدَثَ مُنذُ أَنْ تَرَكْنَاكِ .

قَالَتْ حَلِيمَةُ : أُنظُرْنَ إِلَى هٰذَا الطِّفلِ ! أَعتَقِدُ أَنَّهُ أَجمَلُ طِفلٍ .

إنَّ حِمارَتِى كَانَتْ بَطِيئَةَ السَّيْـرِ ، فَلَمَّا رَكِبَ هٰذَا الطِّفلُ مَعِى تَغَيَّرَ حَالُها ، فَصَارَتْ مُسرِعَةً بَعدَ أَنْ كَانَت بَطِيئَةً .

فَضَحِكَتِ النِّسَاءُ ، وَقُلْنَ : إِنَّنَا نَعرِفُهُ ، إِنَّهُ اليَتِيمُ الفَقِيرُ .

قَالَت حَليمَةُ : نَعمَ إِنَّهُ يَتيمٌ فَقِيرٌ .

فَسَأَلْنَها بِاستِهزَاءٍ : ما اسْمُ طِفلِكِ الَّذِى يُبَشِّرُ بِالخَيرِ ؟ فَأَجَابَتْ : مُحمَّدا .

فَقُلْنَ لَهَا : إِنَّهُ اسمٌ نَادِرٌ .

قَالَتْ حَلِيمَةُ : إِنَّهُ اسمٌ لَم يُسَمَّ بِهِ

أَحَدٌ قَبلَهُ ، وَأَطلَقَتِ اللِّجَامَ لِدَابَّتِهَـا ، إِلَى بَيتِهَا قَبلَ صَاحِبَاتِهَا بِمُدَّةٍ .

نَزَلَتْ مِن فَوقِ الدَّابَّةِ بِرِفقٍ ، حَتَّى لاَ تُزعِجَ الطِّفلَ المُختَارَ . ثُمَّ طَلَبَت مَاءً دَافِئًا ، وَأَعْطَتهُ حَمَّامًا ، ثُمَّ أَرضَعَتْـهُ ، وَوَضَعَتْهُ فِى فِرَاشِهِ لِيَستَرِيـحَ وَيَنَـامَ . وَعَجِبَت حَلِيمَةُ كَثِيرًا ؛ لِأَنَّ الطِّفلَ فِى أَثنَاءِ هٰذِهِ الرِّحلَةِ المُتعِبَةِ لَم يَبْكِ كَغَيرِهِ مِنَ الأَطفَالِ ، بَلِ استَمَرَّ مُبْتَسِمًا طُولَ الطَّرِيقِ . وَبَعدَ أَنِ اسْتَحَمَّ وَرَضَعَ نَـامَ

نَوْمًا هَادِئًا .

اِعتَقَدَتْ حَلِيمَةُ وَزَوجُهَا أَنَّ مُحمَّدًا نِعمَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ اللهِ . وَاعتَنَى بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الأُسْرَةِ ، وَتَأَكَّدَ الجَمِيعُ أَنَّ سَعَادَةَ الحَظِّ قَدْ دَخَلَتْ بَيتَهُمْ ، مُنذُ دَخَلَهُ مُحَمَّدٌ وَعَاشَ فِيهِ . وَقَد ظَهَرَ لِحَلِيمَةَ مُنذُ مَجِيءِ مُحمدٍ أَنَّ غَنَمَهَا تَرجِعُ إِلَى البَيتِ كَثِيرَةَ اللَّبَنِ ، وَأَنَّ أَلبَانَهَا أَكْثَرُ مِمَّا فِى الأَغنَامِ الأُخرَى ، فَتَحلُبُ مِنَ اللَّبَنِ مَا شَاءَتْ ،

وَتَجِدُ اللَّبَنَ كَثِيرًا ، فَتَشْرَبُ وَيَشْرَبُ أَولَادُهَا . وَكَانَتْ بِلَادُ بَنِى سَعْدٍ مَعْرُوفَةً بِهَوَائِهَا الطَّيِّبِ ، وَمَائِهَا العَذْبِ ، وَلِسَانِهَا الفَصِيحِ .

مَرَّتِ الأَيَّامُ بِسُرعَةٍ فَكَبِرَ مُحمدٌ ، وَاستَطَاعَ أَنْ يَقِفَ وَيَمشِى وَحْدَهُ قَبلَ المُدَّةِ الَّتِى كَانَت تَنتَظِرُهَا حَلِيمَةُ . وَتَعَلَّمَ النُّطْقَ ، وَبَدأَ يَتَكَلَّمُ بِأَفصَحِ لِسَانٍ . فَعَجِبَ كُلُّ مَن رَآهُ يَمشِى وَهُوَ صَغِيرُ السِّنِّ . وَعَجِبَ كُلُّ مَن سَمِعَهُ

يَتَكَلَّمُ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الصَّحِيحَةَ . وَلاَ عَجَبَ ؛ فَقَد عَلَّمَهُ اللهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، وَأَعَدَّهُ لِيَكُونَ قُدوَةً لِلْعَالَمِ فِى قَولِهِ وَفِعْلِهِ . وَمَكَثَت أُمُّهُ آمِنَةُ وَحدَهَا فِى بَيتِهَا . وَفِى كُلِّ يَومٍ كَانَتْ تُفَكِّرُ فِى طِفلِهَا ، وَتَنتَظِرُ انتِهَاءَ السَّنَتَينِ الأُولَيَيْنِ مِن حَيَاتِهِ .

وَقَدِاعتَادَتْ حَلِيمَةُ مُدَّةَ الرَّضَاعَةِ أَن تُرسِلَ إِلَى أُمِّهِ ، وَتُخبِرَهَا مِن وَقْتٍ لآخَرَ عَن صِحَّتِهِ ، وَنُمُوِّ

جِسمِهِ ، وَابتِسَامَاتِهِ ، وَلُغَتِهِ الَّتِى يَتَحَدَّثُ بِهَا .

وَفِى رِسَالَةٍ مِنَ الرَّسَائِلِ قالَتْ حَلِيمَةُ لِأُمِّهِ :

« إِنِّى أُحِسُّ إحسَاسًا قَوِيًّا بِأَنَّنَا لاَ نَقُومُ بِرِعَايَتِهِ وَتَربِيَتِهِ وَإِرْشَادِهِ ، وَلٰكِنَّ هُنَاكَ قُوَّةً عَظِيمَةً تَرْعَاهُ وَتُرَبِّيهِ وَتَلْحَظُهُ ، وَتُعْنَى بِهِ العِنَايَةَ كُلَّهَا . وَهَذِهِ القُوَّةُ لاَ يُمكِنُنَا أَن نَصِفَهَا . »

مَرَّت سَنَتَانِ وَلَم تُحضِرْ حَلِيمَةُ

الطِّفلَ العَظِيمَ إِلَى مَكَّةَ ، فَفَكَّرَت السَّيِّدَةُ آمِنَةُ كَثِيرًا فِي أَن تُرسِلَ إِلَى حَلِيمَةَ لِتُحضِرَهُ ، وَأَخِيرًا وَصَلَت حَلِيمَةُ بِالطِّفلِ المَحبُوبِ إِلَى بَيتِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ .

أَسرَعَتْ آمِنَةُ إِلَى فِنَاءِ (صَالَةِ) البَيتِ ، وَقَابَلَت ابنَهَا المَحبُوبَ ، وَوَضَعَتْهُ عَلَى صَدْرِهَا ، والدُّمُوعُ تَتَسَاقَطُ عَلَى خَدَّيهَا . وَلِشِدَّةِ تَأَثُّرِهَا لَم تَستَطِعْ أَن تَنطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ . وَأَخِيرًا مَلَكَت نَفسَهَا ،

وَبَدَأَت تَتَكَلَّمُ مَعَ ابْنِهَا ، وَتَضَعُ يَدَهَا عَلَى خَدَّيهِ ، وَشَعْرِهِ الجَمِيلِ ، وَتَنظُرُ إلَى عَينَيهِ الوَاسِعَتَيْنِ ، وَقَامَتِهِ المُعتَدِلَةِ ، ثُمَّ قَالَت : مَا أَجمَلَكَ ! بَارَكَ اللهُ عَلَيكَ .

دَخَلَت آمِنَةُ البَيتَ وَمَعَهَا حَلِيمَةُ ، ثُمَّ طَلَبَتِ الأُمُّ مِن ابنِهَا أَنْ يَقِفَ ، وَيَمشِىَ ، وَأَنْ يَجرِىَ إِلَيْهَا ، فَجَرَى ، فَضَمَّتْهُ إِلَى ذِرَاعَيْهَا ، وَعَانَقَتْهُ وَعَانَقَهَا ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ : أَنتَ رُوحُ قَلبى ، وَنُور

عَيْنَيَّ . فَكَّرَت آمِنَةُ فِى زَوجِهَا ، وَتَمَنَّتْ لَو كَانَ حَيًّا لِيَرَى ابْنَهُمَا الكَامِلَ العَظِيمَ ، ثُمَّ عَلِمَتْ أَنَّ هٰذا مُستَحيلٌ . وَأَجْلَسَتْ مُحَمَّدًا بَينَهَا وَبَينَ حَلِيمَةَ . ثُمَّ قَالَتْ لِحَلِيمَةَ : شُكرًا جَزِيلاً لَكِ يَا حَلِيمَةُ . لَقَد وَفَّيْتِ بِوَعدِكِ حَقًّا . إِنَّهُ جَمِيلٌ جِدًّا ، مَملُوءٌ نَشَاطًا . وَقَد كَبِرَ جِسْمُهُ ، وَيُرَى كَأَنَّهُ ابنُ أَربَعِ سَنَوَاتٍ ، مَعَ أَنَّهُ كَمَا تَعرِفِينَ ابنُ

سَنَتَيْنِ .

قَالَتْ حَلِيمَةُ : إِنِّى خَائِفَةٌ عَلَيْهِ ؛ فَالْمَرَضُ مُنتَشِرٌ بِمَكَّةَ ، وَرَجَتْهَا أَن تَسمَحَ لَهُ بِالْمُكْثِ مَعَهَا مُدَّةً أُخرَى ، حَتَّى يَكبَرَ ، وَتَتَخَلَّصَ مَكَّةُ مِن ذٰلِكَ المَرَضِ المُنتَشِرِ . نَظَرَتْ آمِنَةُ إِلَى حَلِيمَةَ بِاستِغرَابٍ ، ثُمَّ سَكَتَت وَلَم تَتَكَلَّمْ . فَتَشَجَّعَتْ حَلِيمَةُ وَقَالَتْ : إِنِّى لاَ أُفَكِّرُ إِلاَّ فِى شَىْءٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ المُحَافَظَةُ عَلَى الطِّفلِ ،

مِنَ المَرَضِ المُنتَشِرِ بِمَكَّةَ . وَرَجَتْ رُجُوعَهُ مَعَهَا إِلَى بَنِى سَعدٍ ، لِيَقضِى مُعظَمَ وَقتِهِ فِى الهَوَاءِ النَّقِىِّ ، البَعِيدِ عَنِ المَرَضِ .

نَظَرَت آمِنَةُ إِلَى ابْنِهَا مِرَارًا ، وَفَكَّرَت طَوِيلاً ، وَوَجَدَت أَنَّ مِنَ الوَاجِبِ أَن تَحْتَمِلَ ، وَتَسْمَحَ لِطِفلِهَا بِالرُّجُوعِ مَعَ مُرَبِّيَتِهِ . ثُمَّ قَالَت لِحَلِيمَة :

يُؤلِمُنِى يَا حَلِيمَةُ أَن أُفَارِقَ ابنِى

مَرَّةً أُخرَى ؛ ولٰكِنْ خَوفًا مِنَ العَدْوَى يَجِبُ أَن أَنْسَى نَفسِي ، وأُفكِّرَ فِيهِ وَحدَهُ . وَلِهٰذَا أَسمَحُ لَكِ بِأَن تَأْخُذِيهِ ثَانِيَةً .

وَلَم تَستَطِعْ آمِنَةُ أَنْ تَملِكَ نَفسَهَا ، وَأَخَذَتْ تَبكِي ، وَضَمَّت ابْنَهَا إِلَى صَدْرِهَا ، وَقَبَّلَتْهُ قُبْلَةَ الوَدَاعِ ، وَسَلَّمَتْهُ إِلَى حَلِيمَةَ ، وَقَالَتْ لَهَا :

سَأَترُكُهُ أَمَانَةً بينَ يَدَيْكِ .

ثُـمَّ استَـأْذَنَت حَلِيمَـةُ ؛ لِأَنَّهـا تُرِيدُ أَن تَصِلَ إِلَى بَيتِهَا نَهَارًا قَبلَ أَن تَغرُبَ الشَّمسُ . وَأَخَذَتْ مُحمدًا بَينَ ذِرَاعَيهَا ، وَرَكِبَتْ مَسرُورَةً ؛ لِأَنَّهَا استَطَاعَتْ أَن تُقْنِعَ أُمَّهُ بِرَأيِهَا . وَتَفُوزَ بِمُحَمَّدٍ مَرَّةً ثَانِيَةً . وَأَسْرَعَتْ حَتَّى رَجَعَت إِلَى بَيتِهَا ، وَسُرَّت أُسْرَةُ (عَائِلَةُ) حَلِيمَةَ كَثِيرًا لِرُجُوعِ الطِّفلِ العَظِيمِ مَعَهَا .

وَرُبَّمَا تَتَأَثَّرُ مَعِي يَا بُنَىَّ لِبُعْدِ مُحَمَّدٍ

عَن أُمِّهِ ، وَثِقْ بِأَنَّ حَلِيمَةَ سَتُعْنَى بِهِ كُلَّ العِنَايَةِ ، وَسَيَرْجِعُ ثَانِيَةً إِلَى أُمِّهِ وَهُوَ مُتَمَتِّعٌ بِكُلِّ صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ .